1 المنتصر والمهزوم

استرق الرجلان نظرات خاطفة عبر قاعة المحكمة العارية والمكلسة الجدران في حوض البحرية بواشنطن. وكانا يبدوان مذهولين بالسخرية المنعكسة في عيني كل منهما.

كان القبطان تشارلز بتلر مكفاي الثالث Charles Butler McVay III رجلاً وسيماً على نحو ملفت للنظر: شفتاه مذمومتان قليلاً وحاجباه داكنان ومقوسان جداً، وذقنه تدل على العناد وقد خَضَبَ شعرَهُ الشّيبُ. كان يجلس في مقعده كأنه قطعة خشب مسندة مرتدياً بزّة سلاح البحرية الزرقاء. وكان صدر بزته زاخراً بأشرطة نالها في المعارك، ومنها النجم الفضي الذي حاز عليه تقديراً لشجاعة أبداها تحت وابل من نيران العدو.

والآن في كانون الأول / ديسمبر 1945، ها هو البحّار البالغ من العمر 46 سنة عرضة للهجوم ثانية، وكان سلوكه الهادىء شاهداً مرة أخرى على شجاعته. غير أنه لن ينال أوسمة هذه المرة، فإنه لن يمحو صحة الكارثة التي حلت برجاله حتى وإن حالفه النصر. فقبل

خمسة أشهر تقريباً، وتحديداً في 17 تموز / يوليو، أبحر طراد البحرية الأمريكية الضخم إنديانابولس Indianapolis بقيادة مكڤاي من سان فرانسيسكو إلى جزيرة تينيان Tinian في المحيط الهادىء. وبعد أن أفرغ هناك أجزاء حيوية للقنبلة الذرية التي كانت ستدمر هيروشيما Hiroshima، توجه إلى جزر الفليبين. وفي طريقه إلى هناك، أغرقت الطرّاد غواصة يابانية. ولم ينج من طاقمه البالغ 1196 رجلاً سوى 316 رجلاً ظلوا يتخبطون مدة خمسة أيام في مياه المحيط الهادىء الذي يعج بسمك القرش. وكان معظم الناجين يستخدمون سترات النجاة ولا شيء غيرها. تلك كانت أسوأ كارثة في تاريخ البحرية الأمريكية.

كان مكڤاي من بين الناجين. وها هو الآن يحاكم أمام محكمة عسكرية بتهمة تعريضه سفينة للخطر نتيجة إهمال (لعدم سلوكه مساراً متعرجاً) ولعدم كفاءته في أداء واجبه (عدم تأكده من مغادرة طاقمه السفينة في الوقت المناسب). كان أول قبطان قط تحاكمه الحكومة الأمريكية لفقدانه سفينته في المعركة. وكان أشد تألماً نظراً لأنه كان ينحدر من عائلة عريقة في التقاليد البحرية.

والآن حانت لحظة الإذلال النهائي. فقد كان موستشورا هاشيموتو Mochitsura Hashimoto البالغ من العمر 36 سنة، قائد الغواصة اليابانية I - 58 التي أغرقت الطراد إنديانابولس، يجلس متململاً على طاولة الادعاء بصفة شاهد. كان شعره شديد القصر يغطي رأساً مربع الشكل يتسع ليشكل فكين عريضين. وكان أنفه البارز يطل على شفتين مطبقتين بإحكام. وكانت تستر بنيته القصيرة

المكتنزة بذلة مدنية زرقاء غير مكوية وقميص أبيض مهترىء لا يتناسب مع حجمه.

أضفت الصورتان المتغايرتان لمكڤاي وهاشيموتو طابعاً مذهلاً نوعاً ما على سخرية المناسبة. ففي حين بدا مكڤاي أنيقاً وهادئاً، بدا هاشيموتو أشعثاً وقلقاً. كان أحدهما يجسد المنتصر في الحرب العالمية الثانية، والآخر يجسد المهزوم في تلك الحرب. غير أن المنتصر في هذا السياق الشاذ في قاعة المحكمة كان تحت رحمة المهزوم.

كانت المجابهة غير العادية ترمز بقسوة إلى محنة مكڤاي. فقد حولت مأساة الطراد إنديانابولس وعقابيلها قائد السفينة إلى إنسان مضطرب مستغرق في التفكير حتى يكاد يصعب على أصدقائه القدامى التعرف عليه. فقد كان مكڤاي رجلاً سعيداً دائماً استمتع بحياته بالكامل، ولم يكن يأخذ الحياة على محمل الجد. كان دائماً يدندن أغان وألحاناً مرحة ويشنف آذان رفاقه وهم يتناولون الشاي. وبقي، حتى زواجه الثاني على الأقل، يحيا حياة تتناسب مع لقب «الأرنب» الذي اكتسبه بجدارة عندما كان يخدم في أنابولس Annapolis.

كان مكڤاي دائم السعي إلى صحبة مثيرة ولم يكن ذلك عسيراً عليه نظراً لما يتمتع به من جاذبية ووسامة وبنية رياضية (فقد كان يشارك في المدرسة في مباريات السباحة وكرة المضرب وكرة القدم) مما جعله محط أنظار من الناس المعجبين، وكانت إحداهن النجمة

السينمائية سغني هاسو Signe Hasso التي شاركته رحلته من الفليبين إلى سان فرانسيسكو.

كانت إحدى مغامراته المذهلة الأخرى كيناو وايلدر Kinau Wilder ابنة حفيدة الدكتور غريت بارميل جود Dr. Gerrit Parmele Judd، أول المبشرين الذين استقروا في هاواي التي كانت آنذاك مملكة بولينيزية. في سنة 1831، بعد ثلاث سنوات من وصول الدكتور جود، أنجبت زوجته بنتاً كانت أول طفل أبيض يولد في هاواي. وكانت زوجته سليلة أحد المهاجرين الذين وصلوا على متن السفينة ماي فلاور Mayflower.

حسبما تقول الرواية، أقدمت الملكة كيناو ـ وهي مارد يبلغ طولها ستة أقدام، ووزنها 200 كيلو غرام تقريباً، على خطف الطفلة ورفضت إعادتها إلى والديها. وحذر جود الملكة الوثنية من عقاب الله. وقام بأداء «معجزة» للتأثير عليها. فقد قلب إنجيله رأساً على عقب وتظاهر بقراءته، إذ كان يحفظ المقاطع عن ظهر قلب. صاحت الملكة مذهولة واعتبرت ما قام به جود «إشارة من السماء»، فأعادت الطفلة إلى والدها. بيد أنها طلبت أن تحمل الطفلة اسمها، أي كيناو. ولكن أعرب جود عن أسفه لعدم تمكنه من إطلاق اسم وثني على طفلة مسيحية.

عندئذ وافقت الملكة على أن تُعمّد وأُطلق اسمها على الطفلة، ونقضت بذلك أحد الممنوعات الوثنية القديمة التي تحظر إطلاق اسم ملكي على فرد من عامة الناس. وعلاوة على هذا الشرف، وهبت

الملكة ابنتها «المتبناة» قطعة أرض مختارة من أراضي التاج في وايكيكي Waikiki حيث عاشت العائلة لأجيال في منزل جميل يعرف باسم كيناو هيل Kinau Hale أي دار كيناو. وأصبح جود نفسه فيما بعد رئيساً لوزراء المملكة وساعد على إضفاء الصبغة العصرية عليها، وبالتالي ظل يستمتع بحقوق الملكية واحتفظ بهذه الحقوق لسلالته.

رأت ابنة حفيدة جود النور في سنة 1902، وحملت أيضاً الاسم الملكي الأول. كانت مفعمة بالحيوية وشديدة المراس وكانت ذات جمال يذكّر بجمال الممثلة بيتي ديڤيز Bette Davis: نجلاء العينين وذات ابتسامة جذابة. عاشت كيناو وايلدر حياة الأميرات وكانت مثلهن تحت سيطرة أم مستبدة ومفرطة في الرعاية. لذلك صممت على الهروب من سجنها الملكي الفخم ورأت في تشارلز مكڤاي الفارس الأبيض الذي سينطلق بها إلى الحرية.

لَمَحَتْهُ كيناو أوَّل مرة في سنة 1923، في حفلة في فندق فيرمونت Fairmont في سان فرانسيسكو. وأمرت صديقتها أن ترفع يدها عن ذاك الرجل لأنها قررت الاقتران به! وفي وقت لاحق في تلك الأمسية، التقيا في حفلة أخرى وتعارفا.

وبعد أربعة أيام، عرض عليها الملازم مكڤاي الزواج وكان قد مضى على تخرجه من أنابولس ثلاث سنوات. وقد تمت مراسيم الزواج في حفل «ملكي» باذخ في كيناو هيل تحت شجرة «كاماني» Kamani مزهرة. كانت العروس تضع إكليلاً من براعم الزنجبيل بطول عشرة أقدام وكان مجدولاً حول عنقها وملتفاً حول ذراعها.

ولكن ما لبثت البراعم أن ذبلت. وخلال شهر العسل ذي الميزانية المتواضعة والمفصل على قدر دخل مكڤاي من البحرية، فإن كيناو المعتادة على أن تحاط برهط من الخدم والتي لم تعرف الطهي في حياتها أبداً، أسقطت سلطعاناً في قدر من الماء المغلي وأوشكت على الإغماء عندما وثب السلطعان خارج القِدر وكانت تلك آخر مرة تقوم بطهي الطعام لزوجها، إذ وظفت بعدها رئيس طهاة. وبدا واضحاً أنها هي التي ستتحمل المصاريف وقد تَقَبَّلَ الضابط الشاب الأبي الأمرَ على مضض.

وعندما عين مكڤاي في واشنطن سنة 1925، كان والده الأميرال تشارلز ب. مكڤاي الثاني في استقباله هو وكيناو ورضيعهما في محطة القطارات. وخاطب الأميرال ابنه قائلاً: «يا بنيّ، لقد اشترينا بيتاً وسوف تقطن معنا وتساعدنا على دفع قيمته».

شحب لون كيناو التي لم يكن قد مضى على تحررها من براثن أمها سوى وقت قصير، ولكن الابن رضخ. فمنذ ولادة مكڤاي الشاب في أفراتا Ephrata بولاية بنسلڤانيا Pennsylvania سنة 1898، لم يكن أبداً ليتحدى الأميرال الذي ترعرع هو أيضاً في عائلة مخضرمة في سلاح البحرية. وكان تشارلز ب. مكڤاي الأول يرأس شركة بتسبورغ تروست Pittsburg Trust وقدم تبرعات سخية إلى الأكاديمية البحرية وكوفيء بمنحه عضوية شرف في صف سنة 1890.

أما تشارلز الثاني، فقد هيأ لابنه الالتحاق بأكاديمية ييتس Yates ومن ثم طلب من الرئيس الأمريكي آنذاك وودرو ولسون Woodrow

Wilson أن يعين ابنه في منصب في أنابولس سنة 1916. وكان على الشاب أن يضاهي سجل أبيه يوماً ما. فقد شارك تشارلز الأب في الحرب الإسبانية ـ الأمريكية في مجد الانتصار بصفته ملازماً في البحرية كما كان في الحرب العالمية الأولى قائداً للسفن الحربية ساراتوغا Saratoga ونيوجيرسي New Jersey وأوكلاهوما Oklahoma. وبعد الحرب، رأس حوض البحرية في واشنطن (وتشاء الأقدار أن يحاكم ابنه في نفس المكان)، ورأس أيضاً مكتب المعدات الحربية، وأخيراً، كان قائد الأسطول الآسيوي للولايات المتحدة، أجل، سوف يصبح ابنه أميرالاً مثله. لا نقاش في ذلك!

كان تشارلز الثالث يخشى والده، ولكنه كان يحبه أيضاً ولو على نحو غير شخصي فكان يحب والده بالقدر الذي يمكن لابن أن يحب أباه الذي ألقى عليه ظلالاً رهيبة لم يكن بوسعه الهروب منها. لم يكن مكفاي الأب متسلطاً دائماً، وإنما كان يتصرف على هذا النحو إلى الحد الذي يعتبره ضرورياً لبلوغ ذروة المناصب العسكرية. ومع ذلك، فإن تشارلز الثالث لم يعرف أبداً الأب الحنون والعاطفي، لأن الأب، مثله مثل الابن الذي سوف يُقَوْلِبُهُ ويصقلُه، كان نادر الوجود في البيت. والواقع، إن الأب كان عند ولادة طفله ملازماً شاباً يؤدي خدمته في مكان ما في أعالي البحار، ولم يعرف بمجيء ابنه إلاَّ بعد أيام من ولادته. وحينما علم بالأمر، كتب إلى زوجته إديث Edith بأسلوب كان من المؤكد أن يعتبره هراء فيما بعد.

كتب لزوجته قائلاً:

«إنني مشتاق لرؤيتكما. كنت أنظر إلى صورتك قبل أن أنام كما كنت أفعل دائماً وكنت آمل أن يكون الابن شبه أمه. إنني مسرور وفخور وأحب زوجتي حباً جماً. أعتقد أنني سأكون خائفاً منك. فقد عانيت الكثير الكثير ويمكنك من مقامك الرفيع كأم النظر إليَّ باحتقار أنا المسكين».

والآن بعد مضي خمسين سنة تقريباً، أصبح الأميرال أقل تواضعاً نوعاً ما. وكان يُرهب زوجته حقاً وكثيراً ما كان يحملها على ترك مائدة العشاء وهي تجهش بالبكاء بسبب لسانه اللاذع. مع أنه ظل كما يبدو يعتبر الأمومة بمثابة مقام رفيع، فإنه لم يعد يعتبر الأم شخصاً «يخشاه» أو حتى شخصاً جديراً بالاحترام. كان يذكِّر كيناو قائلاً: «بنيتي، عليك ألاَّ تنسي أنك لا شيء سوى أم الطفل في بيتي».

أصبحت حياة كيناو لا تطاق وغدت حياتها موحشة أكثر مما كان الحال في قصرها في وايكيكي، سيما وأن زوجها كان يمضي أكثر أيامه في البحر؛ ولم يكن بوسع حماتها أن تقدم لها عوناً يذكر. وفي نهاية الأمر، أقنعت كيناو زوجها بتحدي والده والانتقال إلى شقة خاصة بهما. ثارت ثائرة الأب إذ كيف يجرؤ ابنه على مخالفة أوامره! من الذي سيساعده الآن في دفع رهن البيت؟ وأصبح لا يكلم كيناو إلاَّ نادراً. لقد كانت تلك المرأة سيئة الأثر على ابنه.

حاولت كيناو استعادة احترامها الذاتي في الدوامة الاجتماعية لواشنطن وهونولولو، وهي بالنسبة لمكفاي دوامة مدوخة في غاية التعقيد الذي كان يفضل لقاءات أكثر إلفة مع ندمائه الذين يشاركونه

الشراب. وكثيراً ما كان يجلس بمفرده يحتسي الشراب طيلة المساء ومن ثم يتناول طعام العشاء وهو صامت أو يخلد إلى النوم. وهكذا أصبحت أذواق الزوجين متنافرة: لم يكن يستمتع بالموسيقى الكلاسيكية التي تهواها زوجته ولم تكن هي تتذوق موسيقى الجاز التي يعشقها. وذات يوم، عادت كيناو إلى المنزل لتجد امرأة أخرى مع زوجها في البيت.

قالت كيناو فيما بعد: «كنت أحترم تشارلي ولكنني أدركت أنني لا أحبه. كان رجلاً حنوناً ولكنه عديم الإحساس».

امتد انعدام الإحساس لدى مكڤاي إلى ولديه تشارلز الرابع الملقب بـ «كواترو» Quatro، وكيمو Kimo. ولما كان الأب خارج البيت معظم الوقت، فقد راح يبتعد عن ولديه تدريجياً، ونادراً ما كان يهتم بدراستهما أو أنشطتهما الأخرى. ولما كان هو نفسه قد عانى من القسوة وشدة المعاملة عندما كان يافعاً، فإنه لم يطلب من ولديه سوى القليل، ووصل به انعزاله إلى حد الشعور باللامبالاة رغم أنه كان يشجعهما على الاستمرار في التقاليد البحرية التي درجت عليها العائلة.

حاول تشارلز الرابع ـ شأنه شأن أبيه ـ أن يرضي «الرجل العجوز» رغم اعتباره إياه ملوماً بعض الشيء في أمر وحدته في طفولته البائسة. ونادراً ما كان يرى والده، ولم يكن يرى أمه كثيراً أيضاً إذ إنها كانت منهمكة في نشاطاتها الاجتماعية. وحتى مربيته الإنكليزية فقد كانت

تعتني أولاً بأخيه الأصغر وكانت تتجاهله تماماً، وما كان منها إلاّ أن تؤنبه لسوء سلوكه.

وهكذا شب تشارلز الرابع وهو يشعر بالكآبة والمرارة وأخذ يكذب على أسرته ويسرق من خزائن المدرسة.

كان يقول: «لم لا أكون سيئاً طالما أنهم يعتقدون أنني سيىء؟» وأخيراً، هجر الدراسة وهو في المرحلة الثانوية.

كان الأب يريد أن يلتحق ابنه كواترو بالأكاديمية البحرية، ولكن الشاب كانت تنقصه الدرجات الدراسية الجيدة، وكان يشكو من علة خطيرة في عينيه، فقد حثه والده على التطوع في سلاح البحرية. وساعده جده في إقناع سلاح البحرية بقبوله، فاتّصل شخصياً بمركز التطوع.

صاح في أذن الضابط المناوب: «أنا الأميرال مكفاي. إن حفيدي قادم للتطوع. سيحصل على الدرجة 1 ـ ألف. أفهمت أيها الشاب؟ إنه 1 ـ ألف!».

فهم الضابط المناوب. وهكذا التحق كواترو بسلاح البحرية بصفة متطوع. ونجح في التدريب بالغش دون أن يخبر والده مستخدماً عدسات لاصقة. ولعلها كانت المرة الأولى التي يشعر فيها القبطان بالحبور، فها هي ثلاثة أجيال حية من عائلة واحدة تخدم في سلاح البحرية في آن واحد معاً. وحدث ذات يوم أن أصيب كواترو في عينه من غير قصد بضربة من مِقْبَض بندقية ولم يعد يستطيع

استعمال العدسات اللاصقة لفترة من الوقت. وهكذا انتهت العملية التنكرية واضطر للاستقالة. وكان مكڤاي الأب أشد كآبة من ابنه.

شعر القبطان بخيبة أمل مريرة وكان مردها احترام تقاليد العائلة أكثر من قلقه على مستقبل ابنه. ومع ذلك، لم يكن يلحظ وجود ابنه أو يهتم بأمره، بل كان منهمكاً جداً في بذل الجهود لكسب رضا والده الذي كان جل همه أن يصبح ابنه أميرالاً. وفي خلال ذلك، التحق الابن الأصغر كيمو بالجيش مما زاد القبطان غماً وكآبة.

كان تشارلز الرابع (كواترو) يقول إن والده أدى التزامه تُجاه ولديه بحذافيرها ولكنه «لم يستطع قط أن يروِّض نفسه على البوح بحبه لنا».

والواقع هو أن مكڤاي قد شعر بحرج شديد حين كان كيمو عائداً من إحدى الرحلات وكان في غاية السعادة لرؤية والده حتى إنه قبّله على فمه. واعتبر الأب تصرف ابنه تصرفاً غير لائق مع رجل من رجال البحرية!

كان من العسير على مكڤاي أن يحب أحداً، ربما لأن والده علَّمه أن الحب إنما هو عاطفة غير منضبطة لا تليق بشخص سيصبح أميرالاً في المستقبل، أو أنه لا يوجد متسع كاف في روح البحّار الحقيقي لإبداء حب يفوق حُبَّه لسلاح البحرية.

وجد مكڤاي أخيراً متَّسعاً حين توقف في إحدى الأمسيات سنة 1943، في نادي شيڤي تشيز Chevy Chase في ضواحي واشنطن، وتعرف هناك على لويز كلايتور Louise Claytore، ولم تكن في هذه

المرة قصة حب تنتهي بحفل زواج باذخ تحت شجرة من أشجار الكاماني. وظل الاثنان يتقابلان مدة سنة دون خرق قواعد اللياقة وانتهى الأمر بهما إلى الزواج كان زواج لويز الأول.

ولم يكن بالإمكان تَصَوُّرُ تبايُن أكثر حِدَّةً من التباين الذي كان بين لويز وبين زوجة مكفاي الأولى كيناو، رغم أن لويز كانت ابنة طبيب مرموق في واشنطن وترعرعت هي الأخرى في محيط ثري. وخلافاً لكيناو، لم تكن لويز ذات جمال صارخ، بل كان وجهها بسيطاً، ولكن كانت عيناها البرّاقتان الذكيتان تشعان دفئاً ودماثة تأسران قلوب الناس. كانت ذات أذواق بسيطة ولم تكن تشعر بالراحة في المناسبات الاجتماعية التي كانت تشغل جزءاً كبيراً من حياة كيناو، وكانت تستمتع بالصيد البحري والقنص، شأنها في ذلك شأن زوجها، كما كانت ربة بيت ممتازة بكل معنى الكلمة.

والأهم من ذلك هو أن لويز كانت تحب مكفاي حباً جماً. فقد كانت تُعنى بشؤونه وتفرغ منفضة سجائره كلما نفض رماداً فيها وكانت تطهو له وجباته المفضلة، وتبدي احتراماً جماً لوالده، وباختصار، كانت ترضي كل نزوات زوجها. وهكذا كان تفانيها من أجله هو العلاج السحري لنزعته نحو الانحراف، إذ وجد نوعاً من العلاقة الحميمة لم يعرفها قط من قبل.

والآن، مع امتداد أمد الحرب، فقد كان النصر يعني أكثر من مجرد هزيمة للعدو والفوز برتبة أميرال. لقد كان يعني العودة إلى البيت وإلى حياة هانئة مع زوجته المحبوبة.